وأما عن المرحوم شوقي بك فقد كان يحتفي بجمعية أبولو الى قبيل وفاته وبرّ الاعضاء بذكراه كل البرّ ، وكان الفقيد يقدر روح التسامح والمودة عندنا وهو في حياته لم ينظم هجواً في أحدٍ مطلقاً

سرّ الفصاحة

تأليف الأمير أبي محمد عبدالله بن محمد سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي

٣٢٠ صفحة بحجم ٢٤ ٣/٤ × ١٦ ١/٤ سم — طبع بالمطبعة الرحمانية على نفقة مكتبة الخانجي بالقاهرة

هذا الكتاب ذخيرة من ذخائر تلك اللغة الشريفة ، ودرّة يتيمة من كنوزها الغالية ، يمتزج فيه العلم بالأدب ويدلّ على ثقافة واسعة وعقل مفكر راجح التفكير مدقق عميق البحث والاستقصاء ، فيه من روح الأدب خفّتُه ومن عمق العلم واتساعه دِقّتُه ورزانته . يبدأه المؤلف ببحث علميّ دقيق عن الأصوات وماهيتها يخيل اليك وأنت تقرأه انه عصريّ التأليف فتتملكك الدهشة ويستفزك الاعجاب الى تمجيد ذلك الكنز الغالي من أدبنا العظيم ، يثبت فيه أن الصوت معقول لأنه يدرك بحاسة السمع ولذلك فهو عرض وليس بجسم لأن الأجسام متماثلة والإدراك انما يتعلق بأخصّ صفات الذوات والاّ كانت الأجسام جميعها مدركة بحاسة السمع ، وان الأصوات تدرك في محالها ولا تحتاج الى انتقال محالها وانتقالها وكونها اعراضاً مُنع من انتقالها .

ومن هذا البحث الدقيق ينتقل في دقة الى الحروف ، فالكلام ، فاللغة ، وبمثل الاستقراء الذي بيّناه من بحثه في الصوت يبحث في مواضيع الكتاب المختلفة . ولننقل للقارىء

قطعةً من الفصل الذى عقده عن الاستعارة فى الكلام على شروط الفصاحة التى تستوجب وضع الألفاظ موضعها ، ومن هذه الشروط أن لا يكون فى الكلام تقديم وتأخير كقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلاّ مملكاً أبو أمّه حىّ أبوه يقاربُهْ

أو كقوله أيضاً :

فليست خراسان التى كان خالدٌ بها أسدٌ إذ كان سيفاً أميرُها

أو مقلوباً كقوله أيضاً :

وأطلس عسّال وما كان صاحباً رفعت لنارى موهناً فأتانى

وفى هذا الفصل يقول : « ومن وَضْع الألفاظ موضعها حسن الاستعارة وقد حدّها أبو الحسن على بن عيسى الرمانى فقال : هى تعليق العبارة على غير ما وضعت فى أصل اللغة على جهة النقل للابانة ، وتفسير هذه الجملة أن قوله عزّ وجلّ : « واشتعل الرأس شيباً » استعارة لأن الاشتعال للنار ولم يوضع فى أصل اللغة للشيب ، فلما نقل اليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه لأن الشيب لمّا كان يأخذ فى الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله الى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التى تشتعل فى الخشب وتسرى حتى تحيله الى غير حاله المتقدمة . فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة فى الوضع للبيان ولا بدّ من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى لأنها الأصل والاستعارة الفرع ، وليس يخفى على المتأمل ان قوله عزّ اسمه « واشتعل الرأس شيباً » أبلغ من « كثر شيب الرأس » وهو حقيقة هذا المعنى . وقول امرىء القيس « قيد الاوا » أبلغ من « مانع الاوابد عن جريها » والاصل فى ذلك ما أفاده التشبيه فى الاستعارة من البيان . فان قال قائل : فما الفرق بين الاستعارة والتشبيه اذا كان الامر على ما ذكرتم ؟! قيل : الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن وهو أن التشبيه على أصله لم يغير عنه فى الاستعمال وليس كذلك الاستعارة لأن مخرج الاستعارة مخرج ليست العبارة له فى أصل اللغة ، على أن الرمانى قال : إن التشبيه فى الكلام بأداة التشبيه وهو يعنى كأن والكاف وماجرى مجراهما ، وليس يقع الفرق عندى بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط ، لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعة له ويكون حسناً مختاراً ولا يعده أحد فى جملة الاستعارة لخلوّه من آلة تشبيه . ومن هذا قول الشاعر :

سفرن بدوراً ، وانتقبن أهِلَّةً ومِسْنَ غصوناً ، والتفتنَ جآذرا

وقول الآخر :

وأسبلت لؤلؤاً من نرجسٍ فسقت وردا ، وعضّت على العنّابِ بالبَرَدِ

وكلاهما تشبيه محض وليس باستعارة وإن لم يكن فيهما لفظ من ألفاظ التشبيه ، وانما الفرق بين الاستعارة والتشبيه ماحكيناه أوّلاً » .

هذا الفصل أنموذجٌ لما وضع عليه هذا الكتاب النفيس الذى يجب أن يطالعه الجيل الحديث فيجد ثروة طائلة لم يكن يظن لها وجوداً .

وقد ذُيِّلَ هذا الكتاب باستدراكات قيِّمة قام بها صديقنا الفاضل الباحث المدقِّق محمود محمد شاكر الذى أشار أيضاً بالحاق اعتراضات ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » عن كتاب « سرّ الفصاحة » به ؟

محمد كامل الصيرفى

تنبيه هام

يتشرف مراقب « ندوة الثقافة » باعلان جمهور الأدباء أنه فيما عدا المبادلات الصحيفية الضرورية وأعضاء مجلس (جمعية أبولو) لايستطيع الموافقة على إهداء هذه المجلة الى أحدٍ ما حرصاً على حياتها المادية . وهو من أجل ذلك يدعو جميع أنصارها الى شرائها أو المبادرة الى الاشتراك فيها . ولايمكن مخالفة هذه القاعدة بحالٍ من الأحوال ؟

محمد عبد الغفور

(مراقب ندوة الثقافة)